٤٥ أبو الفتح الواسطي مؤسس الرفاعية بمصر

قبل التعرض لشخصية وأفكار أبى الفتح الواسطى مؤسس الطرق الصوفية بمصر، وجد القطب إبراهيم الدسوقى صاحب الطريقة الدسوقية بمصر، وهى الطريقة الصوفية المحلية بها. . . ينبغى أن نلقى ضوءاً على هذه الطرق التى انتسب إليها القرن الهجرى السابع، فقيل إنه قرن الطرق الصوفية بوجه عام، فما مداه؟ وما تأثيره على وجه الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية بمصر تحديداً؟

الحق أن بعض العلماء والباحثين العرب قرنوا انتشار الطرق الصوفية بتدهور الحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بوجه عام، وإذا نظرنا إلى القرن السابع تحديداً فى مصر نجد أن هناك بالفعل تدهوراً فى هذه الأحوال جميعاً فما تفسير ذلك؟

لعل أحد الباحثين الأجانب أشار إلى ذلك بوجه عام، حيث رأى أن ذيوع التصوف يصحبه تدهور فى الحضارات. ويضرب مثلاً على ذلك بما حدث فى الهند القديمة، وفى العالم الرومانى والإغريقى، وفى القرون الوسطى فى ألمانيا، وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين فى فرنسا، فقد خبت الرغبة الصحيحة فى الحياة لدى بعض الموهوبين ذوى العقول النبيلة، والمشاعر المرهفة. حيث انقطع الرجاء فى حياة مستقلة ممتعة. إن كره هؤلاء للعالم المادى والحضارات يأخذ بمجامع قلوبهم، وإن رغبتهم فى الخير المطلق تدفعهم بلا رحمة إلى التمرد لتخليص أنفسهم وحريتهم من هذا العالم والحضارة والمجتمع.

ويتفق مع هذه النظرة التى ترى أن انتشار الطرق الصوفية يقترن بتدهور فى الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عدد من الباحثين، فى مقدمتهم الدكتور عامر النجار، حيث رأى أن التصوف العملى ـ أى تصوف أصحاب الطرق الصوفية ـ جاء مواكباً لضعف الحضارة الإسلامية. ويتفق هذا مع الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الذى رأى من قبل أن الرغبة فى العزلةوالعودة إلى الله لا تقوى إلا فى ظلال الضعف: فقليل من الناس يتذكر «الله» فى قُوته وصحته وشبابه وثرائه، وكثير منهم يذكرون الله فى ضعفهم ومرضهم وشيخوختهم وفقرهم، ولهذا يقرر الدكتور عامر النجار أن تصوف الطرق الصوفية قد ازدهر ونما فى عصور ضعف الأمة الإسلامية فى القرن السابع الهجرى، ومن عجيب الأمور أن الحكام فى هذا القرن كانوا يشجعون المصريين على ذلك، ويتركونهم ينضمون إلى الطرق الصوفية كما يريدون، حتى ينشغلوا عن فساد هؤلاء الحكام. ولهذا كان القرن السابع الهجرى أكثر القرون اضمحلالاً إجتماعياً وسياسياً وإقتصادياً، مع أنه كان أكثرها تميزاً بوجود الطرق الصوفية، حيث ظهرت الطرق الصوفية البدوية والشاذلية والدسوقية وقويت طريقتا الرفاعية والقادرية.

وإذا كان للشيخ أحمد الرفاعى فضل فى نشر حركة الصوفية من العراق إلى كل أرجاء العالم الإسلامى، فقد كانت هناك شخصيات صوفية تتلمذت على يديه بالعراق، وصار لها الفضل أيضاً فى نشر هذه الصوفية فى العالم الإسلامى، من هذه الشخصيات البارزة فى تاريخ هذه الطرق، شخصية الشيخ أبى الفتح الواسطى، مؤسس الطرق الصوفية بمصر على وجه التخصيص، حيث وفد إلى مصر من العراق، وأقام بالإسكندرية، وبشر بها.

وكما يرى الدكتور عامر النجار فى كتابه «الطرق الصوفية فى مصر نشأتها ونظمها وتطورها» أن هذه الشخصيات الصوفية كانت وراء دفع ونمو حركة الطرق الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، إما بطريق مباشر أو بغير مباشر. وفى مقدمة هذه الشخصيات أبو مدين التلمسانى، وعبد السلام بن مشيش، وأبو الفتح الواسطى. والدليل على وجود هذا الدور لهذه الشخصيات إن أبا مدين التلمسانى المتوفى عام ٥٩٤ هجرية هو أستاذ عبد الرازق الجزولى، والجزولى هو شيخ ومعلم كل من عبد الرحيم القنائى، وأبى الحجاج الأقصرى، وهما من أقطاب التصوف فى مصر، كما أن أبا مدين التلمسانى، أستاذ وشيخ عبد السلام

ابن مشيش، أستاذ ومربى أبى الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية بمصر، والذى سيأتى الحديث عنه فى الصفحات التالية من هذا الكتاب.

وقد توفى الواسطى بمدينة الإسكندرية ودفن فيها حوال عام ٦٣٢ هجرية.

وطبيعى أن يظل مكان الواسطى فى زعامة الطرق الصوفية شاغراً. إلى أن يختار من بعده السيد أحمد البدوى صاحب الطريقة البدوية المعروفة، أو كما يسجل الأستاذ على سالم عمار فى كتابه عن أبى الحسن الشاذلى حيث يقول: «إنه لما وصل خبر وفاة الواسطى إلى خلفاء الرفاعى بالعراق، مركز الدعوة والطريقة الرفاعية، وقع اختيارهم على السيد أحمد البدوى ليخلفه فى الزعامة بمصر، فوصل مبعوثاً من المدرسة الرفاعية إلى الإسكندرية سنة ٦٣٥ هجرية، وفى هذا تقدير كبير لمركز الواسطى ومكانته..»

والجدير بالذكر أن السيدة فاطمة أم السيد إبراهيم الدسوقى صاحب الطريقة الدسوقية أو البرهامية.. هى ابنة الشيخ أبى الفتح الواسطى، الذى أدى دوراً كبيراً فى التخطيط لإقامة واستمرار الطرق الصوفية فى مصر. ويرى المؤرخون أن أبا الفتح قد تصوَّر ـ إن لم يكن قد خطط ـ أن يكون حفيده السيد إبراهيم الدسوقى شيخاً كبيراً مثل شيخه الأكبر السيد أحمد الرفاعى.

ومن هنا يمكن القول اتفاقاً مع المؤرخين لهذه الطرق بأن أبا الفتح الواسطى، وأبا مدين التلمسانى، وعبد السلام بن مشيش كان لهم الأثر فى بذر حركة الطرق الصوفية ونموها وازدهارها، وانطلاقها فى القرن السابع الهجرى ـ قرن التصوف فى مصر ـ حيث ازدهرت حركة الطرق الصوفية كما رأينا، ولاقت تشجيعاً من الحكام. وفى هذا القرن أيضاً ظهر أهم أعلام الطرق الصوفية.

والجدير بالذكر أيضاً أن الواسطى ـ وهو من مواليد بلدة واسطة بالعراق، والذى توفى بالإسكندرية ـ قد لاقى التقدير والتكريم من أهل مصر، فبنوا له مسجداً بالإسكندرية، وضريحاً لقبره يزار.

ذلك لأن مصر لم تنسى كعادتها الذين أعطوا حتى ولو كانوا من البلاد العربية الشقيقة. بل إنها تنزلهم منزلة أبنائها، لا فرق بينهم، ولهذا وغيره من الأسباب نجد الصالحين يهرعون إليها من المغرب والمشرق.. الكل يريد أن يعيش فيها، ويُدفن فى ترابها.

* * *